مسحة المرضى من منظور آباء كنيسة المشرق

Rev. TOWER ANDRIOUS

المقدمة

من الشائع لدى عامة الناس أن مسحة المرضى التي يتقبلها المؤمن المريض ينبغي أن تُمنح فقط وهو على فراش الموت. وكأنها مسحة الموت، وليس مسحة للشفاء. ولكن الحقيقة تختلف تماماً، فقد أراد المسيح شفاء المرضى أيام خدمته الأرضية، كما أراد من خلال الرسل أن تواصل الكنيسة السير على هذا المسار. فقد استخدمها الآباء الأوائل للشفاء الجسدي والروحي مع اليقين بأن فعاليتها ليست في ذاتها، إنما في الصلاة التي يتلوها الكاهن عندما يضع يديه على المريض ويدهنه باسم الثالوث المقدس. وإذا أردنا الإلمام بهذا الطقس المقدس، فليس هناك مرجع خير من الكتاب المقدس للبحث فيه والاستناد على دلائله، فننهي المطاف بعرضٍ مفصلٍ تاريخيٍ وبأبعادٍ متعددةٍ تدور حول استخدام مسحة المرضى في كنيسة المشرق.

البعد الكتابي

هناك مصدران رئيسيان عن مسحة المرضى في العهد الجديد:

- **المصدر الأول هو إنجيل مرقس (6: 13): "وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بالزيت كثيراً من المرضى فشفوهم." يُظهِر هذا النص أن خدمة الرسل الخاصة في شفاء المرضى من خلال المسحة كانت امتداداً لخدمة المسيح نفسه، على الرغم من أن يسوع كان لا يزال في خدمته الأرضية.**
- **المصدر الثاني هو الوصية الرسولية ليعقوب (5: 14-15): " هل فيكم مريض؟ فليستدع شيوخ الكنيسة ليصلوا عليه ويدهنوه بالزيت باسم الرب .**

الصلاة مع الإيمان تخلص المريض، والرب يعافيه. وإن كان قد ارتكب خطيئة، غُفِرَت له. ومن خلال هذا النص الكتابي نفهم بأن زيت المسحة لا يجلب فقط الشفاء الجسدي للمصابين ، بل يجلب أيضاً غفران الخطيئة للمؤمنين الذين يثقون في قوة الرب بالإيمان من خلال سر الكهنوت. فمن خلال جولتنا الكتابية سنجد أن هناك عاملين أساسيين للقيام بذلك، وهما وضع اليدين بمعنى البركة، ومسحة الزيت من جهة أخرى.

مسحة المرضى عند آباء كنيسة المشرق

تشكل هذه الممارسة الرسولية جزءاً من التراث الليتورجي واللاهوتي والكتابي لكنيسة المشرق. ومع أنها لا تُعتبر من الأسرار السبعة في كنيسة المشرق، إلا أن الجاثليق البطريرك مار طيموثاوس الثاني (القرن الرابع عشر) اعتبرها في رسالته واحداً من الأسرار السبعة لأنها تمتلك ميزة نقل نعمة الله إلى المريض سواء جسدياً أو روحياً. كما أنها تختلف عن غيرها من المراسم الكنيسة إذ لا يشترط القيام بها حصراً داخل الكنيسة. علاوة على ذلك، يجب أن تتم هذه المسحة بواسطة الكهنوت الكنسي المُسلم من قبل الرسل، الذي يتم إجراؤه طقسياً من خلال المسح بالزيت المقدس كوسيلة يعمل بها الله لتحقيق الشفاء للإنسان. إلى جانب مار طيمثاوس الثاني أيضاً فقط مار افراهاط يُسمي المسحة سرًا: "ثمرة شجرة الزيتون المجيدة، التي فيها علامة سر الحياة، الذي به يُكمل المسيحيون والكهنة والملوك والأنبياء. أنت تمسح المرضى وبسره الخفي تعيد التائبين. نحن هنا نتحدث عن سر المسحة في المعمودية ومسحة المرضى والتائبين".[1]

تروي سيرة مار أبا الجاثليق كيف بارك الزيت أثناء مرضه المعدي، ثم تم استخدامه لدهن مريض شُفي بهذه الطريقة. كما أرسل مار أبا زيتاً مباركاً إلى امرأة ممسوسة، فعندما دهنته به، فارقها الشيطان.[2] وفي أحد قوانين المجمع لعام 554، نقرأ: "إذا اهتدى أحد المؤمنين المبتلين بمرض الأفعال الوثنية مثل السحر والتعازيم، فيجب أن يُعطى له وسيلة للشفاء، مثل زيت الصلاة الذي يباركه الكهنة، والماء المبارك، والصوم، والصلاة، والسهر المستمر حتى تتبدد الأفكار الشيطانية من ذهنه". [3]كما يُسجل تاريخ سعرت كيف صلى القديس مار عبدا على مريض وثني ودهنه بـ"زيت البركة[4]."

[1]Aphrahat, Demonstrations, J. Parisot, in Patr. Syr. I, 9, 4-8.

[2] O. Braun, Ausgewählte Akten persischer Märtyrer mit einem Anhang: Ostsyrisches Mönchtum, Kempten-München 1915, 207.

[3] يوسف حبي، مجامع كنيسة المشرق، لبنان-1999، 310

[4] The Chronicle of Seert, Patrologia Orientalis, XIII, 588.

في الأسئلة المتعلقة بالمعمودية، يتم الحديث عن زيت النعمة الذي يُمنح لأولئك الذين يحتاجون إلى النعمة، بينما يُستخدم زيت المسحة حصريًا في طقس المعمودية.[5] وبعد فترة قصيرة، يُقال إن زيت النعمة المقدس يُعطى للمرضى.[6] في هذا النص، يكون الحديث عن الزيت وليس عن "خنانا". ويتضح ذلك أيضًا من السؤال التالي: "والزيت الذي قدّسه الكاهن، ومسح به المُعمدين، وسكبه في قرن النعمة، الذي به رُشِم الزيت الذي قدّسه، ما هو الجواب؟ زيت المسحة أم زيت النعمة؟" والجواب هو أن هذا الخلط لا يجوز.[7] كما يستشهد الكاتب السمعاني بنص من آباء الكنيسة يشير إلى وجود مسحة للمرضى، حيث يُوصف دور الكاهن في وضع يديه على المرضى حتى يتم شفاؤهم، وهي إشارة واضحة إلى الزيت[8].

من الجدير بالذكر أن الأسقف الهندي جوزيف، الذي أشار إلى هذا الموضوع عدة مرات سابقاً، أوضح أن شعب مالابار لم يكن معتاداً على ممارسة طقس المسحة الأخيرة، بل كانوا يقتصرون على مباركة الأجساد بدلاً من ذلك.[9] كما أكد الكاتب مانسي، استناداً إلى مجمع ديامبر، على أن شعب مالابار لم يكن يعرف طقس مسحة المرضى[10]. يشهد أيضاً ويليام روبروك أن مسحة المرضى لم تُستخدم من قبل آباء كنيسة المشرق في منغوليا. فقد كان لديهم زيت البركة، استخدمه ويليام بنفسه في المسحة الأخيرة لرجل على وشك الموت، وذلك لأنه لم يكن يمتلك زيتاً مخصصاً للمرضى.[11] وقد ثبت أن زيت البركة كان يُستخدم في بعض الحالات المحدودة للمرضى. ومع ذلك، لم يُطلق على هذه المسحة اسم "سر" في القرون الأولى من تاريخ كنيسة المشرق، ولم تُنسب إلى التعيين الإلهي.

[5] Questions about the Baptism, Vat. Syr. 150. F. 55 r.
[6] Ibid, f. 55 v - 56 r.
[7] Ibid, f. 54 v – 55 r.
[8] Assemani, Bibliotheca Orientalis, III, Rome 1725, 2, 276.
[9] Assemani, Bibliotheca Orientalis, III, , 2, 271.
[10] J. D. Mansi, Sacrorum Conciliorum nova et amplissima collection. T. 35 Diamperitana Synodus in Malabaria, 1272.
[11] Van Den Wyngaert, Sinica Franciscana, Vol. I, Quaracchi – Firenze 1929, 284. The Erküt use a ceremony called anointing the dying. The priest anoints the entire body of the sick person with juice from the fruit of the Sophora from Japan. Since we have no other evidence for the existence of anointing of the sick among the Mongols, it seems very unlikely to assume that anointing of the sick is a surviving practice here. See: A. Mostaert, Les Erküt descendants des chritiens medievaux chez les Mongols ordors. In: Bulletin of the Cath. University of Peking, 1934, 13.

وفقاً لطقس كنيسة المشرق، يتلو الكاهن الصلاة على الزيت الذي يُدهن به المرضى: "أيها الطبيب الحقيقي الذي كلمته مليئة بكل خير و عون و شفاء، يا سيدي، اجعل نعمتك تحل في هذا الزيت، ليكون معيناً ومعالجاً لجميع أمراضنا، مبرداً لآلامنا، ومخففاً لأوجاعنا، شافياً لآلامنا، مطهراً لجروحنا، ومزيلاً للحمى إذا أصابتنا. ليكن هذا الزيت مناسباً لكل شفاء وعون في السلامة التي أعددتها لنا به".[12]

خنانا - ܚܢܢܐ

إلى جانب الزيت المستخدم في مسح المرضى، كانت هنالك وسيلة أخرى للشفاء في التقليد المشرقي القديم ألا وهو خنانا (ܚܢܢܐ)، الذي يحتوي على تراب يتم جمعه من مقابر أضرحة الشهداء، حيث سُفك عليها الدم من أجل اسم المسيح واعتبرت أرضاً مقدسة. وهي نفس المكان حيث مركز كنيسة المشرق والتي فيها قُتل البطريرك مار شمعون بر صباعي ورفاقه من أجل الإيمان بالمسيح من قبل الملك الفارسي الذي آنذاك كان يسجد للشمس في أواخر القرن الرابع. إبان نهاية الاضطهاد الفارسي على أبناء كنيسة المشرق ، حصل بعض المؤمنين المخلصين على تراب من قبور القديسين وقاموا بخلطه بزيت الزيتون لاستخدامه كبركة للشفاء، لكنه في الوقت الحاضر يُستخدم فقط في طقس الزواج في كنيسة المشرق.[13]

في مرحلة ما ,كان خنانا (ܚܢܢܐ) يعتبر بديلاً لمسحة المرضى، إذ تم ذكره بالفعل عدة مرات في تاريخ سعرت. فالقديس مار عبدا يعطي خنانا للمرضى الوثنيين فيشفيهم.[14] ويذكر في مكان آخر كيف يتم استخدام خنانا كجالب حظ. الرجل الذي عامله الوالي الحاكم معاملة سيئة نصحه الراهب سمعان أن يحمل خنانا معه عندما يذهب إلى الوالي.[15] وكان القديس الربان خوداوي يسقي المرضى خنانا فيشفوا.[16] كما لم يكن من الجائز استخدامه كمجوهرات أو زينة على جبين الأطفال.[17]

[12] Joseph Kelaita, the liturgy of the church of the east, 195.
[13] The Rite of marriage of the church of the east, Baghdad 1995, 20.
[14] The Chronicle of Seert, Patrologia Orientalis, XIII, 588.
[15] Ibid, 449.
[16] Ibid, 593.
[17] Ibid, 596.

من الجدير ذكره بأن مار يعقوب الرهاوي (640 – 5708) يُجيب لسؤال يتعلق بشفاء المريض عن طريق خنانا. السؤال: " هل من الممكن للكاهن أن يمنح للهاجريين أو الوثنيين الممسوسين بالأرواح الشريرة بعض النعم من القديسيين أي الماء المقدس ممزوجاً بتراب الآثار المقدسة أي (خنانا - ܚܢܢܐ)، وأن تنثر عليهم حتى يشفوا؟ الجواب: في أي حال , لاينبغي لأحد على الإطلاق أن يعيق أي شي من هذا القبيل, بل يجب إعطاؤه بغض النظر عن طبيعة المرض، إذ لايتطلب الأمر أن أقول أنه يجب أن تمنحهم بعض البركة، لأن الله هو الذي يمنحهم الصحة. من الواضح أنه من الصواب أن تمنحهم هذا دون عائق".[18] في سيرة حياة القديس الراهب مار ميخائيل رفيق الملائكة(الذي عاش في اواخر القرن الرابع الميلادي) ،[19] يُذكر أن حاكم أحدي القرى التي كان سكانها من المجوس، كان يعاني من تسلط روح شريرة، وعانى كثيراً بسببها. ولكن بعد أن منحه البركة المقدسة التي تضمنت تراباً مأخوذاً من قبور الشهداء، مجبولاً بالزيت من يد القديس من "خنانا"، تم شفاؤه. وكان هذا التراب بمثابة بركة ودواء للمرضى المؤمنين روحياً وجسديا.[20] كما تذكر السيرة أيضاً عن القديس مار يارث، الراهب الذي كان احد تلاميذ مار اوجين، والذي شفى مجوسياً كان يعاني من مرض عضال بعد أن آمن بالمسيح كمخلص. فقد صلى عليه وأعطاه تراباً من "خنانا" مخلوطاً بالماء، فشفي في نفس اللحظة.[21]

إضافة الى ذلك، ينقل الكاتب فوستي طقس صنع خنانا، حيث ينبغي أخذ التراب من المكان الذي توج فيه الشهداء. و يتم وضع هذا التراب في وعاء به زيت وماء. يجب بعد ذلك صنع خيوط من الخليط وتركها تجف على قطعة قماش من الكتان. أخيراً، ينبغي للمرء أن يأخذ تربة النعمة للقديس مار توما من قبر القديس توما وينثره على شكل صليب في الوعاء الذي وضعت فيه الخيوط. ويقال: " يُرشم ويقدس هذه خنانا بنعمة الرسول القديس توما من أجل صحة وشفاء الجسد والروح باسم الآب.. الخ".[22] وعند الكاتب السمعاني يعطى خنانا مع الماء للأولاد ليشربوا.[23]

[18] Michael Philip Penn, When Christians first met Muslims, California 2015, 169-170.
[19] Khudra, II, 391.
[20] Addai Sher, History of the most famous Eastern Martyrs, Vol. II, Mosel- 1906, 105.
[21] Ibid, 273.
[22] I. M. Voste, pontificate according to the rite of the Church of the Eastern Syrians, that is, of the Chaldeans. IV, Vatikan 1937-1938, 399; Assemani, Bibliotheca Orientalis, III, 277.
[23] Assemani, Bibliotheca Orientalis, III, 2, 279.

بالنسبة للجانب الليتورجي، هناك العديد من النصوص الطقسية في كتاب الخودرا التي تشير أن "خنانا" كتراب كان يُستخدم للشفاء الجسدي والروحي. في هذا السياق، نستشهد بنص واحد كالتالي: " تُوُجوا بالسيف، طُبِخوا بالنار، أُلقِيوا امام الحيوانات المفترسة، غُرِقوا في البحار، ولم يكتفي الظالمون بهذا، بل بعد وفاتهم، سَحقوا و طَحنوا عِظامِهم و رَموا ترابهم في البحار. كان رجاء اولاد الظلمة أن لا يتمكن سيدهم من إحياءهم. استهزؤا بالسيف و استخفوا بالنار بالقوة التي نالوها من ربهم. و من ترابِهم صُنِع خنانا ليطرد به الارواح الشريرة والطغاة. المسيح يقوي للشهداء بجهادهم ويحفظ جمعنا بصلواتهم".[24]

الخاتمة : تشارك الكنيسة المريض آلامه, فيصلي الكاهن مع عائلة المريض من أجله لينال شفاء جسده ونفسه أيضاً من خلال مسحه بالزيت فيستمد منها النعمة الألهية. في مسحة المرضى نجد معاني عميقة جداً تفوق تماماً المعنى الذي يتصوره عامة المسيحيين من غنى الخلاص وتكريس الآلام لله. فمن خلال هذه المسحة، يعرض الله خلاصه وعهده، وانطلاقاً من عطاء الله , على المؤمن أن يتجاوب مع الله فيقبل الخلاص ويدخل في بنوّته مع الابن المتجسّد لأجل خلاصنا. ثمار مسحة المرضى تزهر في كيان الإنسان كلّه، فسرّ المسحة له قطبين أساسيين: الصحّة الجسدية والنفسيّة وكلاهما معاً يؤمنان الحياة الروحيّة عبر مغفرة الخطايا.

[24] Khudra, Vol.I, 29.